٢١- باب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ {التوبة : ١٢٨}.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبري عيدا، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» رواه أبو داود بإسناد حسن، رواته ثقات([1]).

وعن علي بن الحسين: أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تتخذوا قبري عيدا، ولا بيوتكم قبورا، وصلوا علي، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم» رواه في المختارة([2]).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة.

الثانية: إبعاده أمته عن هذا الحمى غاية البعد.

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، مع أن زيارته من أفضل الأعمال.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.

السادسة: حثه على النافلة في البيت.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة.

الثامنة: تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب.

التاسعة: كونه صلى الله عليه وسلم في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.

---

[1]) رواه أحمد في المسند برقم {٨٨٠٤) ،وأبوداود في سننه برقم {٢٠٤٢} .

[2]) رواه الضياء المقدسي في المختارة {٤٩/٢}برقم {٤٢٨} ،وابن أبي شيبة في المصنف برقم {٧٦٢٤} .

الشرح:

في هذا الباب يبين كيفية حماية التوحيد بأمور في الأفعال وسيأتي في نهاية بيان كيفية حماية حمى التوحيد بالأقوال، وهو مما يبين أن المؤلف شديد الاهتمام بهذه المسألة .

قوله :

{باب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك}والمقصود بالمصطفى هنا النبي محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله اصطفاه ، كما جاء في صحيح مسلم **« إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِى هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِى مِنْ بَنِى هَاشِمٍ »** (١) فهو أشرف العرب نسبا ودارا صلى الله عليه وسلم **﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾** .

قوله : {جناب التوحيد} يعني جانب التوحيد ، حمى جانب التوحيد بسده كل الطرق التي توصل إلى الشرك ، ويبين في هذا الباب بعض هذه الطرق الفعلية.

الدليل الأول :

قوله : وقول الله جل وعلا ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ بدأ بآيتين من كتاب الله جل وعلا من سورة التوبة فيهما بيان فضل النبي صلى الله عليه وسلم وشرفه وعظم منزلته ، وفيها امتنان من الله جل وعلا على هذه الأمة ، أن جاءنا هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، أشرف العرب نسبا ودارا.

قوله : **﴿لقد جاءكم﴾** اللام مؤكدة للقسم ، فالتأكيد هنا حاصل بثلاثة أشياء ، القسم المقدر، يعني والله ، واللام، وقد ، كلها مؤكدة لما سيتلى عليكم ، **﴿جاءكم﴾** الخطاب للعرب ، لأنه صلى الله عليه وسلم بعث في العرب ، وهو من العرب صلى الله عليه وسلم .

﴿جاءكم رسول من أنفسكم﴾ الفاء هنا مضمومة على قراءة الجمهور، وقرأ بعض القراء من الأربعة الزائدة على العشرة **﴿من أنفَسِكم﴾** بفتح الفاء ، يعني من أفضلكم وأشرفكم ، والقراءات الأربعة الزائدة عن العشرة تسمى بالشواذ ، قرأ بهذا ابن محيصن من الأربعة ، وقرأ بذلك ابن عباس وأبو العالية **﴿من**

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم {٦٠٧٧} .

أنفَسِكم﴾ يعني من أفضلكم وأشرفكم نسبا ، أما على قراءة الجمهور ﴿**أنفُسِكم﴾** فالمراد بها إما أن يكون ﴿**من أنفُسِكم﴾** يعني من العرب ، أي من جنسكم ، لأنه من العرب صلى الله عليه وسلم ، وهذا تشريف أيضا لهم لأنه بعث منهم صلى الله عليه وسلم ، أو يكون ﴿**من أنفُسِكم﴾** يعني من البشر وليس من الملائكة أو من الجن أو من غير ذلك ، فلو كان ملكا يكون هناك صعوبة كبيرة جداً في التعامل معه .

فمن نعمة الله أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر، فهذا القول اختاره بعض أهل العلم ورجحه الزجاج وهو من أئمة اللغة ، وعلى كل حال سواء قلنا أنه من العرب أو من البشر فهو عليه الصلاة والسلام من البشر وهو أيضا من العرب ، فلا مانع من حمل اللفظ على كلا المعنيين أنه من البشر عليه الصلاة والسلام وأنه من العرب بل من أشرف العرب نسبا ودارا. ﴿**عزيز عليه ما عنتم﴾** هذا من أوصافه صلى الله عليه وسلم ، أي عزيز عليه الشيء الذي فيه مشقة عليكم فلا يشرعه لكم ، فيصعب عليه ما يشق عليكم ، و{**عزيز**}: خبر مقدم ، {**وما**}: مصدرية ، هي وما بعدها تؤول إلى مصدر، أي عزيز عليه عنتكم وما فيه مشقة لكم ، وقد تعرب أيضا ما وما بعدها على أنها فاعل لعزيز، أي يعز عليه ما يشق عليكم ، وقد ذكر هذا بعض أهل العلم كالقرطبي .

فالمقصود بهذا الوصف أنه يشق عليه ما فيه مشقة لكم ولا يحب لكم ما فيه مشقة أو صعوبة ، وهذا واضح في السنة ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة» وفي صلاة التراويح لما خرج صلى في المرة الأولى والثانية والثالثة وامتنع من الخروج لأصحابه في الرابعة مخافة أن تفرض عليهم في جماعة فتكون واجبة على الناس ، وقس على ذلك ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم بعث بالحنيفية السمحة ، التي فيها رفع الحرج ، وفي الحديث قوله «إن هذا الدين يسر» «يسروا ولا تعسروا» «يسرا ولا تعسرا».

قوله : ﴿**عزيز عليه ما عنتم﴾** هذا وصف من أوصافه صلى الله عليه وسلم ﴿**حريص عليكم﴾** هذا الوصف ملازم للوصف الأول ، فإذا كان يصعب ويشق عليه ما فيه صعوبة علينا وحرج فإن هذا يلزم منه أن يكون حريصا علينا ، حريصا على دخولنا الجنة ، وعلى نجاتنا من النار، حريصا على أن يشرع لنا ما ينفعنا ﴿**حريص عليكم﴾** ومن هذا الحرص أن يبعدنا عن الشرك وعن

وسائل الشرك ، وهذا الشاهد في هذا الباب ، ووجه الشاهد : أنه من خوفه علينا وحرصه علينا حذرنا من الشرك ومن وسائله في الأفعال والأقوال والاعتقادات ، وحذرنا من كل ما يوصل إلى الشرك ، قال أبو ذر: لقد توفي النبي صلى الله عليه وسلم وما طائر يطير في السماء إلا ذكر لنا منه علما.

وهذا الأثر ذكره ابن تيمية رحمه الله تعالى في أول «الفتوى الحموية الكبرى» ليبين أن الذي يذكر للصحابة كل شيء حتى ما يدور في السماء فإنه لا يصح أبدا أن يدع أصول الدين بدون بيان ، وهذا فيه رد على أهل التأويل الذين يزعمون أن المراد بالنصوص كذا وكذا ، فيقول شيخ الإسلام : لو كان هذا هو المراد لبينه النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يستحيل أن يبين للصحابة كل شيء حتى ما يطير في السماء ويترك أصول الدين ، هذا محال ، فمن حرصه علينا أن حذرنا من الشرك ووسائله ، صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى : ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ امتن الله جل وعلا على هذه الأمة بهذه المنة ، فقال تعالى: ﴿**لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾ هذه منة لابد للمسلم أن يستشعرها ، وهي أن أرسل له هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم استجابة لدعوة الحبيب إبراهيم عليه السلام ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم**﴾.

قال تعالى ﴿**بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ أصل العبارة : رؤوف رحيم بالمؤمنين ، قدم ﴿**بالمؤمنين**﴾ للتأكيد ، ﴿**بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ خبر مقدم ، الرأفة هي أرق الرحمة ، يعني أشد من الرحمة ، الرأفة مرتبة فوق الرحمة وكلاهما صيغة مبالغة ﴿**بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ ومعنى هذا أنه بغير المؤمنين شديد ، أي على الكفار والمنافقين صلى الله عليه وسلم ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ فأهل الإيمان رحماء فيما بينهم أشداء على أهل النفاق وأهل الكفر، فهو صلى الله عليه وسلم رؤوف بالمؤمنين ، رحيم بهم ، ومن رأفته ورحمته ألا يشق عليهم في شيء ، ومن رأفته ورحمته أن يسد الطرق الموصلة إلى ما يضرهم وأعظم ذلك الشرك بالله سبحانه وتعالى ، فسد الطرق التي توصل إلى الشرك كبيره وصغيره ، وهذا من رأفته ورحمته بنا صلى الله عليه وسلم. قوله : ﴿**فإن تولوا**﴾ يعني فإن أعرضوا ﴿**فقل**

حسبي الله﴾ حسبي : خبر مقدم ، ولفظ الجلالة **(الله)** : مبتدأ مؤخر، ويجوز فيها العكس ، الله حسبي ، حسبي الله ، قالها الخليل عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له **﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل﴾** **﴿حسبي الله لا إله إلا هو﴾** يعني لا معبود بحق سواه ، **﴿حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت﴾** أصلها توكلت عليه ، فتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، يعني لا أتوكل على غير الله سبحانه وتعالى.

﴿عليه توكلت﴾ أي لا أتوكل على غيره ، لأن التوكل عبادة ، والتوكل معناه اعتماد القلب على الله جل وعلا في جلب المنافع ودفع المضار والثقة به مع الأخذ بالأسباب ، فلا يصلح أن يقول قائل أنا متوكل على الله ويجلس في بيته ولا يأخذ بالأسباب : أسباب العلم وأسباب الرزق أو غير ذلك ، فالتوكل أن تخرج وتسعى وتأخذ بالأسباب وتعتمد على الله جل وعلا في أن يجلب لك الخير ويدفع عنك الضر وأنت تأخذ بالأسباب ، أما إذا كنت لا تأخذ بالأسباب وتقول أنا متوكل فهذا يسمى بالتواكل ، وقد قال عمر: إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة. وقد يأخذ الإنسان بسبب يسير جدا ويكون منه الخير الكثير ، فالنتيجة على الله سبحانه وتعالى وهو الكفيل بها ، فهو الذي أمرك بأن تأخذ بالأسباب وهو الذي يبارك سبحانه وتعالى فيما تأخذ به.

قوله : **﴿وهو رب العرش العظيم﴾** وصف العرش بأنه عظيم ، وأيضا وصف العرش في مواضع أخرى بأنه المجيد وبأنه الكريم ، والعرش هو أكبر المخلوقات ، وهو سقف الجنة ، والرحمن جل وعلا مستو عليه ، والأشاعرة والمؤولة والمعطلة يؤولون العرش ، فمنهم من يقول العرش هو الكرسي ويقولون الكرسي هو العلم ، ومنهم من يقول المقصود بالعرش هو الهيمنة والسيطرة على الكون كما يقوله سيد قطب في تفسير الظلال ، وأهل الأهواء والمؤولة مضطربون كما هي عادتهم ، فربنا جل وعلا وصف العرش بأنه عظيم وبأنه كريم وبأنه مجيد ، ومعنى {كريم} يعني فاق كل عرش ، ووصفه بأنه مجيد، ووصفه في الحديث بأن له قوائم وأن الملائكة تحمله وأن النبي صلى الله عليه وسلم يبعث يوم القيامة ويجد موسى عليه السلام آخذا بساق العرش فلا يدري هل بعث قبله أو أفاق قبله وأخذ بصعقة الطور ، المقصود أن أهل السنة يثبتون العرش **﴿الرحمن على العرش استوى﴾** استواء يليق بجلاله لا ندري كيفيته ، فالإيمان به واجب ، كما قال الإمام مالك عندما سأله

رجل كيف استوى؟ قال: الكيف مجهول ، والاستواء معلوم ، يعني معلوم في اللغة معناه ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. أي عن الكيف ، وأمر به أن يخرج من مسجده ، يعني من مسجد النبي صلى الله عليه وسلم .
فالمسلم يؤمن بأن الله جل وعلا استوى على عرشه فوق سماواته سبحانه وتعالى ولا يسأل عن الكيفية ، وهو سبحانه وتعالى رب العرش العظيم ، فجمع في هذه الآية بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، في قوله ﴿**حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم**﴾ هذه توحيد الربوبية والذي قبلها في توحيد العبادة أو توحيد الألوهية.
هاتان الآيتان الشاهد منهما لهذا الباب هو أن النبي صلى الله عليه وسلم من حرصه علينا ما ترك شيئا يقربنا من الله إلا دلنا عليه ، وما ترك شيئا يبعدنا عن الله إلا حذرنا منه ، ومن ذلك وسائل الشرك ، ومن ذلك ما سيذكره المؤلف الآن .
الدليل الثاني :
قال: «**وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تجعلوا بيوتكم قبورا»**» **لا**: هنا ناهية «**لا تجعلوا بيوتكم قبورا**» والخطاب إذا كان للصحابة فكل الأمة تابع للصحابة في ذلك «**لا تجعلوا بيوتكم قبورا**» يعني لا تدعوا الصلاة فيها ، فالمقصود أن نجعل من صلاة النافلة في بيوتنا كما جاء في الحديث «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا» «**أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**» **تخريج** يعني تصلى الفريضة في المساجد مع المسلمين ، أما النوافل والسنن والرواتب فتصلى في البيت ، فمن النوافل المطلقة كالضحى ، قيام الليل ،فيستحب صلاتها في البيت ، لكي يعمر البيت .
قوله : «**لا تجعلوا بيوتكم قبورا**» فانظر إلى عناية النبي صلى الله عليه وسلم وعناية الشريعة بالبيوت ، فلا يريد أن تكون البيوت مقابر، بل تعمر بالعبادة والطاعة ، فالشريعة دلتنا على أمور عظيمة تجعل البيوت عامرة منها صلاة النافلة فيها ، ومن ذلك قراءة سورة البقرة كما جاء في الحديث «إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»
والشريعة السمحة العظيمة أرادت أن تحفظ علينا بيوتنا بأن تحفظ علينا أهلينا وأولادنا بأن ندخل إلى هذه البيوت وسائل الطاعة، ندخل في هذه البيوت العبادات ومنها النوافل ومنها قراءة سورة البقرة ومنها ذكر الله جل وعلا وأن

نخرج منها الصور والتماثيل التي تمنع دخول الملائكة، في هذه الحالة يقل الشر في البيوت وتقل المشاكل ويقل الشقاق والمنازعات لأن الشياطين تخرج وتحل محلها الملائكة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبري عيدا، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» رواه أبو داود بإسناد حسن، رواته ثقات.

وعن علي بن الحسين: أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تتخذوا قبري عيدا، ولا بيوتكم قبورا، وصلوا علي، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم» رواه في المختارة.

فيه مسائل:

الشرح الصوتي للمسائل سيتم تفريغه إن شاء الله.

الشرح الصوتي لحديث علي : مفقود